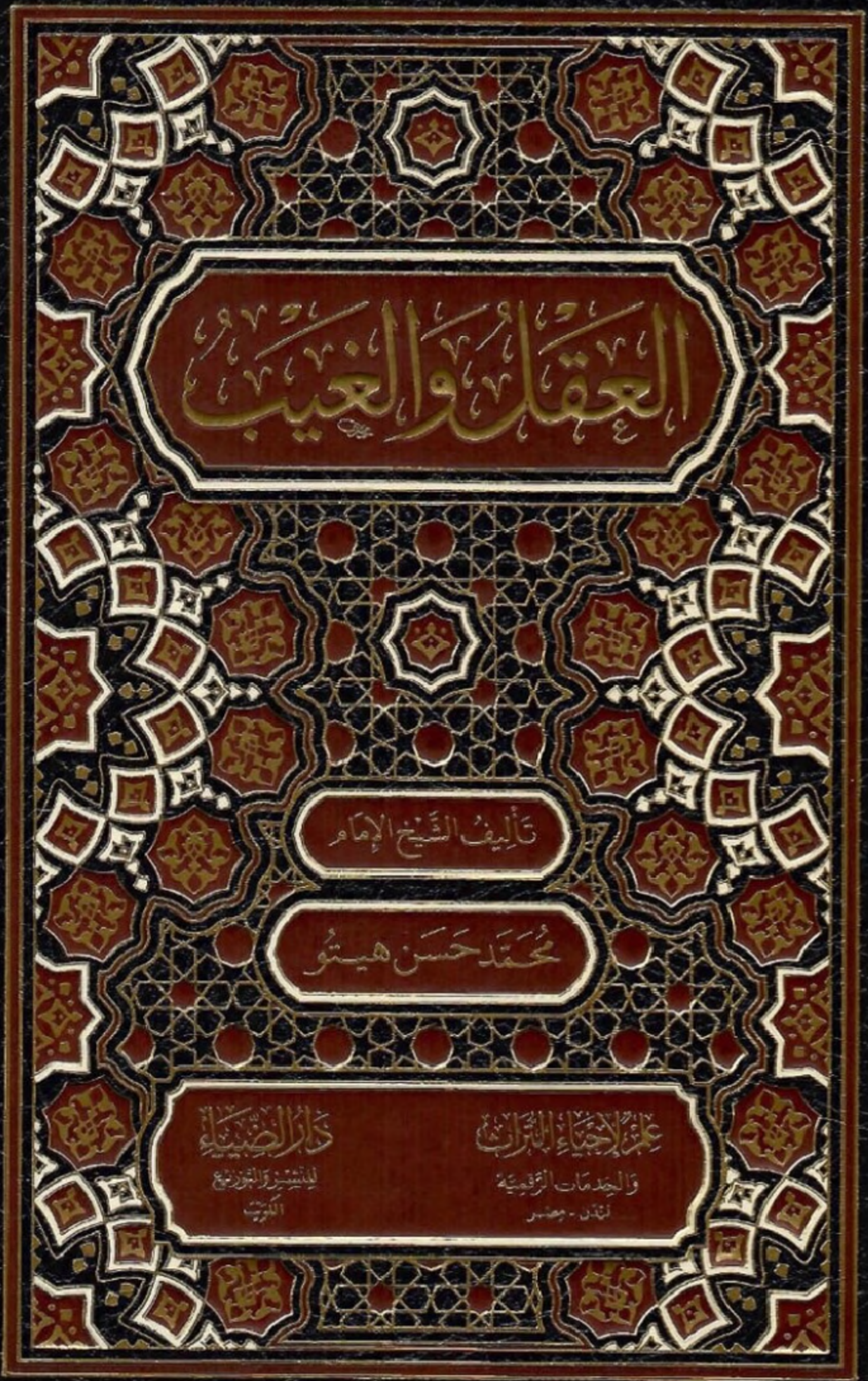

العقل والغيب

تأليف الشيخ الإمام

محمد حسن هيتو

عمر لإحياء التراث
والخدمات الرقمية
لندن - مصر

دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت

العقل والغيب

دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت - حولي - شارع الحسن البصري
ص.ب: ١٣٤٦٠ حولي
الرمز البريدي: ٣٢٠١٤٠
تلفاكس: ٠٠٩٦٥٢٢٦٥٨١٨٠
نقال: ٠٠٩٦٥٥٠٤٠٩٩٢١

Dar_aldheyaa2@yahoo.com
Abdou20201@hotmail.com
www.daraldeyaa.net

دار الضياء
للنشر والتوزيع

علم
لإحياء التراث والخدمات الرقمية

علم لإحياء التراث
والخدمات الرقمية
جمهورية مصر العربية - القاهرة
التجمع الخامس- الحي الثالث- فيلا 152
الهاتف: 00201127999511
international library of manuscripts(ILM)
1155726

رقم الإيداع المحلي: 2017/23123
رقم الإيداع الدولي: 3-5- 85365 -977-978
info@ilmarabia.com

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م

بلد الطباعة: بيروت - لبنان
التجليد الفني: شركة فؤاد البيعينو للتجليد ش. م. م
بيروت - لبنان

الموزعون المعتمدون

دولة الكويت
دار الضياء للنشر والتوزيع - حولي تليفاكس: ٢٢٦٥٨١٨٠ نقال: ٥٠٤٠٩٩٢١

جمهورية مصر العربيَّة محمول: ٠٠٢٠١٠٠٠٣٧٣٩٤٨
دار الأصالة للنشر والتوزيع - المنصورة محمول: ٠٠٢٠١٠٩٨٣٢٥٨٣٢

المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٣٢٩٣٣٢ – ٢٠٥١٥٠٠
مكتبة الرشد - الرياض
دار التدمرية للنشر والتوزيع - الرياض هاتف: ٤٩٢٥١٩٢ فاكس: ٤٩٣٧١٣٠
مكتبة المتنبي - الدمام هاتف: ٨٣٤٤٩٤٦ فاكس: ٨٤٣٢٧٩٤

المملكة المغربية
هاتف: ٠٠٢١٢٥٣٧٧٢٣٢٧٦ - ٠٠٢١٢٥٣٧٢٦٣٧٨٦
مكتبة دار الأمان - الرباط - ٤ زنقة المامونية

المملكة الأردنية الهاشمية
دار محمد دنديس للنشر والتوزيع - عمان هاتف: ٠٦٤٦٥٣٣٩٠ – ٠٧٨٨٢٩١٣٣٢

جمهورية العراق
هاتف: ٠٠٩٦٤٧٥٠٨١٨٠٨٦٥
دار التفسير- أربيل

برمنكهام - بريطانيا
مكتبة سفينة النجاة هاتف: ٠٠٤٤٧٤٧٢٠٤٢٨٢٤ هاتف: ٠٠٤٤٧٤٩٥٠٧٤٠٢٥

الجمهورية اليمنية
مكتبة نور السبيل - حضرموت - تريم هاتف: ٠٠٩٦٧٧٧٦٢٢٤٢٩٩ - ٠٠٩٦٧٧٣٦٨٣٧٩٣٥

الجمهورية التركية
مكتبة الإرشاد - إسطنبول هاتف: ٠٢١٢٦٣٨١٦٣٣/٢٤ فاكس: ٠٢١٢٦٣٨١٧٠٠

جمهورية داغستان
مكتبة ضياء الإسلام هاتف: ٠٠٧٩٨٨٣٠٣١١١١ - ٠٠٧٩٨٨٧٧٣٠٣٠٦
مكتبة الشام - خاسافيورت هاتف: ٠٠٧٩٢٨٨٧٢٩٥٠٥ - ٠٠٧٩٢٨٨٦٦١٤٧٤

الجمهورية العربية السوريَّة
دار الفجر - دمشق - حلبوني هاتف: ٢٢٢٨٣١٦ فاكس: ٢٤٥٣١٩٢

الجمهورية السودانية
مكتبة الروضة الندية-الخرطوم- شارع المطار هاتف: ٠٠٢٤٩٩٩٠٠٤٣٥٧٩

دولة ليبيا
مكتبة الوحدة - طرابلس هاتف: ٠٩١٣٧٠٦٩٩٩ – ٠٢١٣٣٣٨٢٣٨
شارع عمرو ابن العاص

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخه أو حفظه في أي نظام الكتروني أو ميكانيكي يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه، وكذلك لا يسمح بالاقتباس منه أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله ، ومن والاه .

وبعد :

فإن الحملة العالمية علىٰ الإسلام والمسلمين متشعبة الجوانب ، بعيدة الغايات ، متقنة الطرق والوسائل ، مرسومة مناهجها ، ومتعددة مراحلها .

تارة تلجأ إلىٰ السيف ، وتارة تلجأ إلىٰ المكر والخديعة ، وتارة تظهر بلباس العدو اللدود ، وتارة تظهر بثياب الصديق الودود .

وقد صار لها في ديار المسلمين قواعد تركن إليها ، وتعتمد عليها ، وأنشأت فيها جيلًا يحمل بكل جرأة فكرها ، ويلحن بكل وقاحة بمنطقها ، يلبَس لَبوسها ، ولا يقل في حقده علىٰ الإسلام عن حقدها ، بل ربما فاقها وتجاوزها ، وهذه هي طبيعة الإمَّعات والأذناب ، تذوب شخصيتهم في شخصية أسيادهم ، فلا يعملون ما يؤمرونهم به ، بل يتنسمون رَغَباتِهم ، ويتسابقون إلىٰ مرضاتهم ، وبذلك ينحطون إلىٰ الحضيض ، وينزلون إلىٰ ما دون مرتبة العبيد ؛ إذ للعبد في بعض الحالات مواقف يعبر فيها عن آدميته ووجوده ، وهؤلاء لا وجود لهم أمام أسيادهم .

ولذلك وجدنا في كثير ممن يلبس لبوس الإسلام ، ويخفي تحته أحقاد الصليب ، ممن كان ينتمي إلىٰ هذه الأمة ، وجدنا فيهم ما لم نجده في الأعداء أنفسهم!

فالأعداء بمكرهم ودهائهم كَفَوا أنفسهم مؤونة المجابهة والمقارعة عن طريق أولئك الصعاليك المتهالكين ، في إرضاء السادة المتغطرسين .

وغاية الجميع واحدة ، ألا وهي التشكيك في الإسلام ومبادئه بما ذكرنا من المناهج والوسائل .

وهذه التشكيكات وإن كنا علىٰ يقين بأنها لن تؤثر علىٰ الإسلام ، إلا أنها قد تعمل عملها عند ضعفاء العقول ، وضعفاء الإيمان ، مما نرىٰ آثاره ظاهرة جلية في مجتمعاتنا الإسلامية .

وهذه هي طبيعة الشبهة إن لم تدم وتستمر ، إلا أنها تترك العلامة والأثر .

ونحن الدعاة وإن كنا لا نريد أن تكون أعمالنا انفعالات لفعل أعدائنا ، يستثيروننا فيما يريدون لنثار ، وتُسْتَفرغ طاقتنا في مناهجهم المرسومة لنا ، إلا أننا نجد أنفسنا في كثير من الأحيان مضطرين للرد والمجابهة ؛ لأن الشبهة وإن كانت ضعيفة ، أوهىٰ من بيت العنكبوت ، إلا أن كثرة الشبه تشكل تيارًا ، وقد يؤدي إلىٰ الهدف المنشود ، ولذلك نجد أنه لا بد من الوقوف والرد .

وهذا الموضوع الذي سأتكلم به ـ وهو العقل والغيب ـ وإن كان بحثًا فيما يجب على المسلم أن يلزمه بين عقله ودينه ، إلا أنه في نفس الوقت رد على جعجعة طالما رددها أناس ممن ذكرنا ، وما زالت تردد في كل مناسبة وحين ، عزا فيها المرجفون تخلف الأمة إلى الإيمان بالغيب ، وربط مصيرها بالله .

وسوف نرى من خلال السطور القادمة بعض كلماتهم ، المعبرة عن غيظ قلوبهم ، والتي ذرفوها دموعًا في بكاء التماسيح على أمجاد الأمة وحضارتها ؛ لنرى الفارق العجيب بين الباكي والمتباكي ، والمثال البديع لحاقد ينفث بلسان ودود ناصح زعافَ سمه ، وخبث باطنه .

والله هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل

أبو عبد الله
مُحَمَّد حَسَن هيتُو

الكويت ٢٧ ربيع الأول ١٤١٢هـ
٥ تشرين الأول ١٩٩١م

العقـل والغيب

إن الرجل الذي نتكلم معه في أمور الدين والألوهية والغيب أحد رجلين، وذلك أنه:

إما أن يكون كافرًا، ونعني به غير المسلم، سواء كان كتابيًّا أم وثنيًّا، أم ماديًّا ملحدًا.

وإما أن يكون مؤمنًا، ونعني به من آمن بالله تعالىٰ ربًّا، وبمحمد نبيًّا ورسولًا، إلىٰ جانب أركان الإيمان الأخرىٰ.

لا جدال مع الكافر في أمور الغيب:

أما الرجل الأول، وهو الكافر، فلا أريد أن أتكلم معه في هذه الكلمة الآن؛ لأني سأتكلم فيها عن الغيب، وهو مبني علىٰ أساس الإيمان بالله، وهو ليس مؤمنًا به، فقبل أن أتكلم معه علىٰ الإيمان بالمغيبات، يجب علي أن أتكلم معه فيما يصل به إلىٰ هذا الإيمان، وبعد ذلك أتكلم معه علىٰ الإيمان بالغيب، وإلا كان الكلام معه في الغيب ـ قبل الإيمان بالله ـ عبثًا، ومضيعة للوقت، ولا يؤدي إلىٰ نتيجة أبدًا.

وهذه الفكرة من أهم الأمور التي يجب أن يراعيها الداعية المسلم أثناء نقاشه مع الكافر.

فمن العبث أن أتكلم معه علىٰ إثبات الإسراء والمعراج، والجنة والنار، والبعث والحشر، والملائكة والجن، وغير ذلك من الأمور، وهو غير مسلِّم للأساس الذي تنبني عليه، وهو: الإيمان بالله، ووحدانيته، وقدرته.

الكلام في المغيبات مع المؤمن فقط:

فكلامي إذن سيكون مع الرجل الثاني، وهو المؤمن، فهو الذي سأتكلم معه علىٰ العقل والغيب، فأقول:

إن أهم صفة من صفات المؤمن ـ بعد الإيمان بالله ـ هي صفة الإيمان بالغيب.

الإيمان بالله وبالغيب متلازمان:

فلا يستقيم إيمان المرء إلا إذا آمن بكل ما ورد به الشرع، من الأمور المغيبة عنا، البعيدة عن أذهاننا.

ويستوي في هذا ما تقبله العقول وتهضمه؛ لقربه منها، وما تنكره ولا تسوغه؛ لبعده عنها.

كما يستوي فيها ما عثر له علىٰ علة وسبب ، وما لم يعثر له علىٰ علة أو سبب ، بل كان من الأمور التعبدية المحضة .

ولذلك كان أولُ وَصفٍ وصف الله به عباده المؤمنين هو الإيمان بالغيب ؛ فقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢-٣] .

وقال تعالىٰ: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ [المائدة: ٩٤] .

وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩] .

وقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ [فاطر: ١٨] .

وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [يس: ١١] .

وقال: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [الحديد: ٢٥] .

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك: ١٢] .

فمن لم يؤمن بما أخبر عنه الشارع من المغيبات ، أو حاول تأويله تأويلًا مخالفًا لقواعد اللغة ، أو القواعد العلمية الثابتة التي تعبدنا الشارع

لفهم كتابه بها ، كان كمن لم يؤمن بالله تعالىٰ ، وإن صام ، وإن صلَّىٰ وحج وزكىٰ.

الإيمان كلٌ لا يتجزأ:

فالإيمان كل لا يتجزأ ، فإما أن يؤخذ كاملًا ، وإما أن يكون صاحبه كافرًا جاحدًا.

فمن آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وأنكر الإيمان باليوم الآخر ، كان كمن لم يؤمن أصلًا ، وإن كان مؤمنًا فإنه يصير بهذا مرتدًّا.

ومن آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، وأنكر الإيمان بالملائكة ، فإنه يكون كمن لم يؤمن ، وإن كان مؤمنًا وأنكر الإيمان بها صار مرتدًّا.

ومن آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، إلا أنه أنكر عذاب الله للكافرين يوم القيامة ، كان كمن كفر بأركان الإيمان ؛ لأنه كذب خبر الله تعالىٰ في كتابه الكريم ، وردّ كلامه عن الغيب.

إذن فالإنسان المؤمن مكلف بالإيمان بكل ما ورد عن صاحب الشرع ، وليس له الخيار في نفيه ، أو ردّه ، أو تأويله بما لا يتمشىٰ مع قواعد الشرع ، مهما كانت البواعث علىٰ هذا ، وليس له إلا أن يقول

﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

الإيمان بالغيب تكريم للعقل لا تعطيل له:

وليس هذا من قبيل تعطيل العقل الإنساني عن العمل، وإنما هو تكريم للعقل الإنساني عن أن يخوض فيما لا سبيل إلىٰ الخوض به، مما هو غائب عنه، غير خاضع لحواسه.

كما أن تكريم للعقل المؤمن عن الوقوع في المتناقضات؛ لأن العقل إذا كان قد آمن بالله وصفاته؛ فإنه يؤمن بكلامه وخبره من باب أولىٰ؛ إذ المشكلة الأساسية في الإيمان بالله... أما أن يؤمن بالله وصفاته، ثم يردَّ خبره أو ينكرَه، فهذا تناقض تترفع عنه عقول العقلاء.

ولذلك حينما جاء المشركون إلىٰ أبي بكر الصديق، رضي الله عنه وأرضاه، يخبرونه عما أتىٰ به رسول الله ﷺ من خبر الإسراء إلىٰ البيت المقدس، والعروج إلىٰ السماء، وفي ظنهم أنهم جاؤوه بقاصمة الظهر التي سترده عن اتباع محمد ﷺ فيما جاء به؛ إذ كان الإسراء والمعراج مما لا يمكن لعقل عاقل أن يقبله أو يفهمه إن قاس الأمر بالمقاييس المادية التي يحكم العقل من خلالها، وهو ليس ضربًا من المحال فقط، بل هو إلىٰ جانب ذلك إرهاص من إرهاصات الجنون.

ولكن أبا بكر رضي الله عنه لم يفاجأ بهذا الخبر، بل رأىٰ أنه أهون من أن

يَلفِتَ نظرَه، أو يثير شكوكه، وأن أبسط مبادئ المنطق توجب عليه تصديقه.

فقال لهم: أهو قال هذا؟ قالوا: نعم، فقال: إن كان قاله فقد صدق، لأني صدقته في الخبر الذي يأتيه من السماء، وائتمنته عليه، فالله الذي آمنت أنه يرسل إليه بالأخبار من السماء، قادر علىٰ رفعه إليها.

فأفحمهم بهذا، وهذا هو المنطق السليم في الإيمان، ولو أنه أخضع الأمر لموازين العقل المادية، المجردة عن الإيمان بالله، وردّ هذا الخبر لغرابته، لكان متناقضًا.

فحينما يُطالَب المؤمن بالتسليم لخبر الله، والإيمان بالغيب، لا يكون قد طولب بتعطيل عقله، وإهدار ملكاته، وإنما يكون قد أُمر بالارتفاع إلىٰ مستوىٰ التفكير المنطقي السليم.

لا يجوز إخضاع الغيبيات والتعبديات لحكم العقل:

وبناء علىٰ هذا، فإنه لا يجوز للإنسان أن يُخضع مسائل الآخرة الغيبية، والأمور التعبدية، لعقله البشري العاجز القاصر، فإن للعقل حدودًا يقف عندها، وإمكانيات لا يتجاوزها، مهما بلغ هذا العقل من القدرة، ووصل إليه من المعرفة، فأمور الغيب وراء هذه الحدود، وفوق تلك الإمكانيات، وسميت غيبًا؛ لأنها غائبة عن الأعين، وبعيدة ع

الحس ، لا تخضع لمقاييس العقل ، ولا تقاس بمشاهداته .

فإذا ما أخضعنا المسائل الغيبية ، والأمور التعبدية ، لحكم العقل ، فشلنا في العثور علىٰ النتيجة ، وضَلَلنا طريق الوصول إلىٰ الصواب .

◈ أمثلة لبعض ما لا يستوعبه العقل من التعبديات والغيبيات:

ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : «لو كان الدين بالرأي ، لكان مسح باطن الخف أولىٰ من ظاهره» ؛ لأن الفرض في مسح الخف مسحُ ظاهره ، مع أن الذي يتلوث أثناء السير هو أسفل الخف ، لا أعلاه ، فلو أردنا أن نحكم العقل في هذه المسألة لَحَكَم بوجوب مسح أسفله لا أعلاه .

ومن نظائر هذا في الأمور التعبدية:

١ ـ خروج الريح من الدبر ، فإنه ناقض للطهارة ، ويوجب الوضوء في أعضاء الوضوء الأربعة ، وهي الوجه ، واليدان ، والرأس ، والرجلان ، ولا يوجب غسل محل خروج الريح ، وهو الدبر ، ولو حكَّمنا العقل لَحَكَم بوجوب غسل محل خروج الريح المؤدي إلىٰ الحدث ؛ لأنه هو المناسب في حكم العقل للغسل ، وذلك حسب إمكانيات العقل .

٢ ـ الحكمة في مشروعية الوضوء هي النظافة ، واسمه المشتق من الوضاءة يدل عليها ، ومع ذلك نرىٰ الشارع يأمرنا عند عدم الماء بالتيمم ، وهذا ليست فيه نظافة ، بل هو تعفير للوجه واليدين بالتراب ،

ولو حكّمنا العقل في هذه أيضًا لنفاها واستبعدها، وهذا أيضًا دليل على عجزه وقصوره.

٣ ـ ومن هذا أيضًا لو أن الإنسان أراد أن يفكر بعقله في الخلود الأبدي في الجنة أو النار، مما لا يُضبط بملايين السنين، ولا بالمليارات، ولا بمليارات المليارات، ولو كان الحساب بالسنين الضوئية، فإنه لا نهاية له، ولذلك فإن كل رقم رياضي حقيقي أو وهمي لن تكون له أية نسبة أمام اللانهاية، التي سيعيش فيها الإنسان بعد البعث والحساب، إما في الجحيم، وإما في النعيم.

وهل يُطيق العقل المادي، المجرد عن الإيمان بالغيب، الإيمانَ بمثل هذا والتسليمَ له؟!

الجواب عن هذا وبكل بساطة: لا.

ولا أريد أن أستطرد بسرد الأمثلة من فروع الفقه أو مسائل العقيدة، فهي كثيرة لا حصر لها، وكلها تعتمد على الإيمان بالغيب، ويعجِز العقل معها عن الحركة والعمل، ولا يجد بدًّا من التسليم.

العقل عاجز عن استيعاب ما وراء طاقته من وقائع الحياة:

ولكن سأتكلم على وقائع الحياة المادية التي نشاهدها أو نسمع عنها صباح مساء، وكلها تدل على مدى العجز والقصور عند العقل

البشري فيما إذا كانت الأمورُ وراء طاقاته وقدراته.

فلو أن رجلًا أخبر أجدادنا قبل مئة عام، بأنه بعد مئة عام سيتوصل الناس إلىٰ ضرب من العلم يستطيعون بواسطته أن يصعدوا إلىٰ القمر، بل إلىٰ أبعد كواكب المجموعة الشمسية... وأنهم فوق هذا سيتمكنون ـ وهم في هذا البعد السحيق عن الأرض ـ سيتمكنون من قراءة الكتاب الذي نحمله بأيدينا ونحن علىٰ الأرض، بل يعرفون ماذا يوجد تحت أرجلنا في باطنها مما نجهله ونحن عليها... وأنهم سيتمكنون وهم علىٰ الأرض، من عد ضربات قلب الإنسان وهو علىٰ سطح القمر... لأنكروا هذا في ذلك الوقت أيما إنكار، ولسخروا من قائله، ونسبوه إلىٰ الجنون والهذيان؛ لأن العقل كان عاجزًا في تلك الحقبة من الزمن عن إدراك الحقيقة التي صارت بديهية في حياتنا اليوم.

لكن رغم هذا التقدم العلمي الهائل في مجال الكون، والحياة، والصناعة، مما فاق الخيال وسبقه، رغم هذا نجد أن العقل البشري اليوم قد أصبح يقر بالعجز عن إدراك حقائق الكون والحياة أكثر من أي يوم مضىٰ، رغم كشفه لكثير من أسرار الكون والحياة، ومشاهدته لتغيراتهما وتقلباتهما.

بل هو اليوم معترف بعجزه وقصوره عن الإحاطة بجانب واحد من جوانب الكون والحياة، بعد أن اطلع علىٰ إعجاز القدرة الإلٰهية فيهما.

بل إنه ليقف اليوم ذاهلًا عاجزًا، ليس عن إدراك حقائق الكون والحياة فحسب، بل عن إدراك حقائق أصغر الكائنات المجهرية الجرثومية الحية... مما يودي بحياة المئات والآلاف دون أن يستطيع الطب أن يقدم لهم شيئًا.

فإذا ما ثبت لدينا أن العقل عاجز عن إدراك الحقائق التي بين جنبيه، ثبت لدينا ـ من باب أولىٰ وبالبداهة ـ عجزُه عن الأمور الغائبة عن عينيه، ووجب علينا الإيمان بها كما أخبر الشارع عنها.

وإلا أوقع نفسه فيما لا تحمد عقباه، وسلك طريقًا لن يصل إلىٰ منتهاه.

۞ استبداد العقل أوقع الفلاسفة في التناقض والكفر:

إذا ثبت لدينا أن العقل قاصر عن إدراك ما وراء طاقاته وإمكانياته ثبت لدينا أن خوضه في هذا لن يصل به إلا إلىٰ الضياع، وأنه سوف يوقعه في التناقض.

وذلك كالفلاسفة الذين أخضعوا كل أمر من الأمور ـ بدون استثناء ـ لأحكام عقولهم، معتمدين عليها في الفهم والإدراك، ظانين أنها ستبلغهم القصد، وتلهمهم الرشد، ولكن الحقيقة أنها قادتهم إلىٰ متاهات ضلوا فيها عن طريق الرشاد، وتنكبوا سبل الهداية والسداد،

ومن ثَم وقعوا في التناقص المزري بالعقل، وسُلبوا الإيمان!

فقالوا: إن الله يعلم بما مضىٰ من الأقوال والأعمال والأحوال، ويعلم في المستقبل الكليات، ولكنه لا يعلم ما سيصدر عن الإنسان من أقواله وأفعاله الجزئية.. وهي مقولتهم المشهورة بأن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات!

وذلك لأن عقولهم لم تتصور إحاطة علم الله بالجزئيات التي ستقع في المستقبل، فكفروا بما قالوا؛ إذ نسبوا له الجهل.

وقالوا: إن العالم قديم، وليس بحادث؛ لأن عقولهم لم تتصور حدوثه، كما لم تتصور وجود الله ولا شيء معه؛ فجعلوا الله شريكًا في القِدم، فكانوا به كافرين.

وقالوا: إن الله يحشر الأرواح يوم القيامة، دون الأجساد؛ لأن عقولهم التي حكّموها في كل شيء، لم تتمكن من تصور إعادة الجسد بعد الفناء كما كان، وهم لم يزيدوا بهذا علىٰ ترديد ما قاله أمية بن خلف حينما أخذ عظمًا باليًا، فذَرّاه في الهواء، وقال لمحمد ﷺ: أتزعم أن ربك يبعث هذا؟! ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

وكان الجواب المُحكَم، الذي لا يرتاب فيه عاقل مفكر: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩].

إن أبسط قواعد المنطق السليم تقول: إن إعادة تركيب الآلة بعد فكّها أسهل من اختراعها وتصميمها، فمن اخترع الآلة وصممها سهُل عليه إعادة فكها وتركيبها، فالذي خلق الإنسان أول مرة، علىٰ هذا النمط المدهش المعجز، قادر علىٰ إعادة تركيبه وبعثه مرة ثانية، وهو أهون عليه.

إذن فالقول بعدم إمكان بعث الأجساد وحشرها سيوقع قائله في تناقض مَشِين، إذا كان هذا القائل ممن يؤمن بالله، وأنه هو الذي خلق الأجساد أول مرة، وهو الذي نفترضه، علىٰ ما ذكرناه في بداية الموضوع، من أن كلامنا موجه لمن آمن بالله، لا للكافر به.

الإيمان بوجود الله يستلزم الإيمان بِقِدمه وصفاته:

والإيمان بوجود الله، يستلزم الإيمان بوحدانيته، وقدمه، وبقائه، وأن كل ما سواه حادث، أحدثه بإرادته وقدرته، وأنه بكل شيء عليم، وعلىٰ كل شيء قدير، وإلا كان التناقض المَشين المزري بالعقل.

وما وصل الفلاسفة وغيرهم إلىٰ ما وصلوا إليه من التناقض والكفر الصريح إلا باعتمادهم الكلي علىٰ عقولهم، وإطلاق عِنانها للخوض في كل ما عنّ لها، مما كان في طوقها أو خارجًا عنه؛ فقاسوا الغائب علىٰ الشاهد، وتحكموا في الحكم علىٰ الله من خلال القوانين التي حكموا بها علىٰ مخلوقاته، حسبما سولت لهم أنفسهم، وتصورته عقولهم،

متناسين أن الإيمان بالله يحتم عليهم الإيمان بكلامه الذي وصف فيه نفسه بأنه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورىٰ: ١١].

وهذا شيء يقتضيه معنىٰ الألوهية؛ إذ لو كان كالحوادث، لكان متصفًا بصفاتها، ولكان محتاجًا إلىٰ محدِث، فالإيمان بالله يحتم الإيمان بأنه مخالف للحوادث في أوصافها.

ولذلك قال أسلافنا رضوان الله عليهم: كل ما خطر ببالك، فالله بخلاف ذلك.

فمن أكبر العبث أن يجول العقل فيما لا يمكن له أن يتصوره، ولو تصوره لتصوره تصورًا خاطئًا علىٰ غرار ما يتصوره من المحسوسات، والمفترض أنه بخلافها.

كما أخبر الله تعالىٰ عما أعده لعباده المؤمنين به يوم القيامة، من النعيم، مما سمىٰ لهم بعضه باسمه، وعرفوا نظيره في الدنيا، إلا أنه أخبرهم بأنه إنما يشبهه بالاسم، لكن يخالفه في الحقيقة، فقال: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾ [البقرة: ٢٥]، وبيّن هذا في الحديث القدسي فقال: «أعددت لعبادي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر».

خوض العقل فيما وراءَ طاقاته عبث:

فمن أكبر العبث أن نخوض في حقيقةِ ما أعد لنا مما عرفنا اسمه،

وأن نحكم عليه كما نحكم علىٰ نظيره في الدنيا ، لمشابهته له بالاسم ، وذلك لمخالفته له في الحقيقة.

وبناء علىٰ هذا يجب علينا أن نؤمن بالأمور الغيبية التي ذكرها الشارع الحكيم ، علىٰ النحو الذي ذكرها فيه ، سواء أوافق عقولنا أم لم يوافقها.

وليس هذا تعطيلًا للعقل كما ذكرت سابقًا ، وإنما هو تكريم له عن التناقض والفشل ، بالخوض فيما هو خارج عن دائرته ونطاق إدراكه.

◉ الإيمان بالله يستلزم الإيمان بما أخبر به:

لقد ذكرنا قبل قليل أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بصفاته من القدم والوحدانية ، والأبدية ، وغير ذلك.

وكذلك يستلزم الإيمانُ بالله الإيمانَ بكل ما أخبر عنه تعالىٰ في كتابه الكريم ، أو سنة نبيه عليه أفضل الصلاة والتسليم.

فنؤمن مثلًا بحياة البرزخ ، وهي حياة الإنسان في قبره ، حياةً مغايرة لحياتنا الدنيا وللحياة الآخرة ، وأن القبر في الحياة إما أن يكون روضة من رياض الجنة ، وإما أن يكون حفرة من حفر النار ، كما ورد بذلك الخبر عن النبي المعصوم ﷺ ، وإن كنا لا نرىٰ نضارة الجنان ، ولا حرارة النيران حينما نفتح القبور ، ولا نرى جسدًا حيًّا ، وإنما جثة متفسخة ، أو عظمًا باليًا.

وإنما آمنا بما آمنا به من حياة البرزخ ، إيمانًا منا بالغيب الذي أخبرنا عنه الشرع ، وأمرنا بالإيمان به .

۞ ليس كل ما آمن به العقل جرَّبه:

ولا يضيرنا في هذا الإيمانِ أننا لم نتمكن من إخضاعه للتجربة والبحث ؛ لأنه فوق طاقاتنا ، وإمكانياتنا ، وقُوَانا التي نتمتع بها ، فإذا ما أردنا الخوض في حقيقة هذه الحياة ، بهذه الطاقات ، دخلنا في متاهات لا يمكننا أن نخرج منها ، ووقعنا في متناقضات يجب أن ننأىٰ عنها ، وكل ما يمكننا أن نذكره عن هذه الحياة إنما هو ضرب من الخيال ، قد يقرّب إلينا تصور هذه الحياة تصورًا تقريبيًّا بسيطًا ساذجًا ، ولكنه لا يمكننا أبدًا من أن نصل إلىٰ حقيقتها .

۞ الروح حقيقة آمن بها العقل ولم يجربها:

وإذا كان الإنسان قد آمن بأهم حقائق الحياة ، ألا وهي الروح في حياته الدنيا ، دون أن يراها ، أو يخضعها للبحث والتجربة ، فأن يؤمن بأبسط مبادئ الحياة ، ألا وهي حياة البرزخ في بداية النقلة إلىٰ الحياة الآخرة ، من باب أولىٰ .

لقد آمن الإنسان في جميع الأديان ، والمبادئ ، والملل ، والنحل: بالروح ، وحاول الخوض فيها ، والبحث عنها ، ولقد جمحت النشوة في

بداية الثورة العلمية الحديثة بفلسفتها القائمة على عدم الإيمان إلا بما يمكن مشاهدته وتجربته... لقد جمحت هذه النشوة ببعض العلماء الماديين إلى إنكار الروح، بأنهم لم يتمكنوا من معاينتها وتجربتها، ولكن هذه النشوة ما لبثت أن تبخرت وتلاشت حينما اصطدم أولئك العلماء الماديون التجريبيون بآلاف الحقائق العلمية التي آمنوا بها وبوجودها، بناءً على وجود آثارها في الكون والحياة، إلا أنهم لم يتمكنوا من معاينتها أو تجربتها، وآل الأمر في النهاية إلى أن سادت فكرة الروح في أكثر الأوساط العلمية التي أنكرتها، حتى أصبحت اليوم من أهم حقائق الحياة في ميدان العلوم.

ولكن ما هي حقيقة الروح؟ ما لونها؟ ما طولها؟ ما عرضها؟ ما وزنها؟ كيف تدب فينا، وتخرج منا؟ كيف تسري ببعضنا في ملكوت الله أثناء النوم، وتكشف لبعضنا عن بعض الغيب الذي يطلعها الله عليه؟

إن كل ما وصلْنا إليه من العلوم، والمعارف، والمخترعات، وكل ما كشفناه من أسرار الكون في أغوار الفضاء، وأعماق المحيطات، وباطن الأرض، وكل ما عرفناه من أسرار الحياة في أبسط الكائنات الحية، كالأميبيا، وأكثرِها تعقيدًا كالإنسان، لم يزد على أن قال ما قاله الأقدمون منذ آلاف السنين عن الروح...

لقد قال الجميع: إنها الروح، فمن هذه الكلمة انطلقوا، وإليها انتهوا، لم يعرف الإنسان حقيقتها، بل لم يقترب منها... على أنه يؤمن

بها على أنها أهم حقيقة من حقائق الحياة .

الإيمان بالغيب كالإيمان بالروح، بل هو أولى:

فإذا آمن الإنسان بأهم حقائق الحياة الدنيا ، دون أن يراها ويُخضعها لتجربته ، فأن يؤمن بأبسط مبادئ الحياة الآخرة ، وهي في عالم غير عالمه ؛ من باب أولى .

وهكذا يكون إيماننا بكل الحقائق الغيبية .

فنؤمن بالبعث ، وأنه يكون بالروح والجسد معًا .

ونؤمن بالجنة والنار ، وأن الجنة للطائعين ، والنار للعصاة والمذنبين ، وأن المؤمن خالد في الجنة ، والكافر خالد في الجحيم .

ونؤمن بأن نعيم الجنة نعيم حسي ، نُبصره بالعين ، ونسمعه بالأذن ، ونُحس به باللمس ، لا كما يفتريه المشككون من أنه نعيم معنوي .

ونؤمن بالملائكة ، وأعمالِها التي وكلها الله إليها ، وأشكالِها التي خلقها عليها ، وأنها في طاعة لا تعرف المعصية: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦] .

ونؤمن بالجن ، وأنهم خلقوا من النار ، وأنهم مكلفون شرعًا ، فمنهم المؤمن ، ومنهم الفاسق ، ومنهم الكافر .

ونؤمن بالشيطان ، وأنه يوسوس للإنسان بالشر ليبعده عن الخير ، ويسول له المعصية ليصرفه عن الطاعة ، وأنه يجري من بني آدم مجرىٰ الدم من العروق .

إلىٰ غير ذلك من الأمور الغيبية الكثيرة ، مما لا داعي للاستطراد بها ، ومما آمنا به لورود الخبر عنه من صاحب الشرع ، إيمانًا بالغيب ، وإن لم نرها ، أو كانت بعيدة عن إمكانيات عقولنا ومداركنا .

ولا يملك المؤمن إلا أن يقول: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] .

التشكيك بالغيبيات من أهم وسائل الفكر الإلحادي:

إلا أن كثيرًا من رواد الفكر الإلحادي لا يروق لهم هذا ، ويثيرون أمام الناشئة الشبه للتشكيك بالمغيبات ، ومن ثَم يدعو بعضهم لجحودها علنًا ، ويلبَس بعضهم الآخر مُسوحَ الرهبان ، فيحاول التوفيق بينها وبين العقل عن طريق تأويلها بما يناسبه مما يقع تحت دائرة إدراكه وإمكانيته ، فيؤول الشيطانَ مثلًا بنوازع الشر ، ويؤول الملائكةَ ببواعث الخير ، إلىٰ آخر ما هنالك من التأويلات الباطلة للغيبيات ، وهكذا يكون قد جحدها بطريق غير مباشر ، وبهذه الطريقة جُحدت ظواهر القدرة الإلٰهية في المعجزات النبوية ، وكان هذا طريقًا لجحد النبوة والوحي . . .

إيماننا بالغيب من مفاخرنا وإن أسخط الفكر المادي:

إننا إذ نؤمن بالغيب على النحو الذي قدمته في الفقرات الماضية، إننا لَنفخر به غاية الفخر، ونسعد غاية السعادة، فتَفيض بالبِشر وجوهُنا، وتُغمَر بالطمأنينة قلوبُنا؛ لأننا وفينا بما عاهدنا عليه ربنا ونحن سرٌّ مكنون في عالم الغيب: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولن يضيرنا بعد هذا سخط الساخطين، وتشكيك الملحدين، فنحن إذ نؤمن بما نؤمن به، لا نبتغي بذلك مرضاة الناس، وإنما نبتغي مرضاة الله، رضي الناس أم سخطوا، فبالله العز والمَنَعة، ومنه النصر والعون، وعليه الاعتماد والتكلان، لا يَذِلّ من والاه، ولا يَعِزّ من عاداه.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

لا عجب في إنكار الملحد للغيب:

وإنني لا أعجب من ملحد يشكك بالغيب ويكفر به، ولا أتكلم ـ كما ذكرت في بداية الموضوع ـ معه، فمن البديهي أن ينكر الملحد كل ما ينبني على الإيمان بالله؛ لنكران الأصل، وهو الإيمان بالله، وإلا

لكان متناقضًا.

ولا يجوز له في نفس الوقت أن يناقش فيه مسلمًا؛ لأن المسلم - كما بينا - سلّم به؛ بناء على الإيمان بربه، فما يؤمن به هو بديهي في منطقه، وما نؤمن به نحن بديهي في منطقنا، ولا يوجد ما نلتقي عليه معه في هذا الموضوع، وإذا لم تكن ثمة قاعدة مشتركة يلتقي المتناظران عليها، ويحتكمان إليها، كان تناظرهما كالحركة في الحلْقة المفرغة، لا بداية لها، ولا تكون لها أيضًا نهاية، وإنما هي سفسطة وعناد.

۞ الإيمان بالله مع الكفر بالغيب من أشنع المتناقضات:

ولكنني أعجب كل العجب ممن يتظاهر بالإسلام، ويزعم أنه حريص عليه، ومن ثَم يتباكى على حال أمته، ويرثي أمجادها، ناسبًا تأخرها في ميادين السبق العلمي، وتخلّفَها عن ركب الحضارة، إلى أنها آمنت بالغيب، وربطت مصيرها بالله وقدرته!

۞ الإنصاف والتجرد عن العصبية، أساس لعلاج كل قضية:

لقد كنت أود ممن يكتب في أي أمر من أمور العلم، وميادين المعرفة، ومجالات تشخيص العلل وإيجاد الحلول، أن يكون موضوعيًّا، واقعيًّا، متجردًا عن الشهوات والأهواء، والضغائن والأحقاد، يُبدي العلل، ويُظهر الأمراض والآفات، ويكشف عن الأخطار والانحرافات،

بمنطق العلم، وضابط العقل، يريد من ذلك الوصول إلىٰ الحلول السليمة، والارتقاءَ بمن يعالجه إلىٰ مستوىٰ الحياة الفاضلة الكريمة؛ ليساير العلم، ويواكب الحضارة، ويخرج به من أغوار الجهل المزري وحضيضه، إلىٰ يفاع المعرفة المبدعة وذروتها.

وأما أن يكون تشخيصه للأمراض اتهامًا، وذكرُه للعلل والأسباب زورًا وبهتانًا، فإن علاجه لا يكون إلا باطلًا، كما أن دواءه لا يكون إلا سمًّا ناقعًا.

وشتان بين من يعالج ليشفي، ومن يتظاهر بالعلاج ليقتل ويُشقي!

۞ مناقشة ملحد منصف أيسر من مناقشة منافق:

إنني لا أجد غضاضة في أن أناقش إنسانًا ملحدًا، يريد الوصول إلىٰ الحق، فإن النقاش مع مثل هذا غالبًا يؤدي إلىٰ النتيجة، ويوصل إلىٰ الغاية، ما دام النقاش ضمن آداب البحث والنظر، وهذه آداب الإسلام في مناقشة الخصوم، وما حدث أبدًا في تاريخ الإسلام الطويل أن أُكرِهَ أحد علىٰ الدخول في الإسلام، ولا جابه المسلمون أحدًا بالسِّباب والشتائم، والتهكم والسخرية، مع أنهم علىٰ الحق المبين، ولا يدْعون إلا إلىٰ الحق المبين، وإنما كانت الدعوة إلىٰ الإسلام، بالحجة والقناعة والبرهان: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولكنني أجدني يعتصرني الألم، حينما ألقىٰ بعض من وصفتُ ممن يتظاهر بالنصح للأمة، والحرص علىٰ رُقِيِّها وتقدمها، ولكنه بدلًا من أن يعالج أسباب تخلفها علاجًا منطقيًا، أجده يصب جام غضبه وحقده علىٰ الإسلام، زاعمًا أنه هو السبب في تخلف الأمة وتراجعها! ويزعم أن السبب في تقدم الغرب هو تلك الثورة الثقافية والاجتماعية علىٰ الدين! وأن أمتنا إذا أرادت أن تصل إلىٰ ما وصل إليه الغرب فلا بد من أن تمر في تلك الثورة، وإلا فستبقىٰ في تخلفها وتراجعها!

ومن ثَم يزيد الأمرَ وضوحًا بضرب عدد من الأمثلة المؤدية إلىٰ التخلف مما لا بد من الثورة عليه، فمن ذلك الارتباطات العائلية، والإيمان المطلق بالمفاهيم الغيبية، وربط مشاكل المجتمع ومستقبل الحياة بإرادة الخالق... فيما زعم!

* * *

تحليل ملحد منافق لأسباب تخلف المسلمين

لقد قرأت منذ فترة مقالًا لمن لا أريد بيان اسمه لخمول ذكره(١)، وعدم شهرته، ولولا أن كلامه مما يتردد على كثير من الألسنة، لا سيما في الاتجاهات التي تروج لمعناه، لما رددت عليه.

لقد كان يعالج سبب تخلف الأمة ـ كما يزعم ويدعي ـ إلا أنه في الحقيقة لم يعالج سبب التخلف، وإنما أراد أن يفرغ ما يتلجلج في صدره من الأحقاد الدفينة على الإسلام، بعد أن فُتن بمناهج الإلحاد.

فقال بعد أن ذكر أن سبب تقدم الغرب هو ثورته على الدين والمجتمع قال:

«وإن الأمة العربية التي تتطلع اليوم إلى العيش في القرن العشرين ما زالت تعيش بذهنية وقيم حضارة ما قبل الثورة الصناعية».

«وإن القيم والعادات والتقاليد العربية التي حالت دون تقدم المجتمع العربي في الماضي ما زالت تقف اليوم ثابتة قوية تحول دون حدوث تغيرات أساسية في قيم المجتمع العربي».

---

(١) انظر مجلة العربي، العدد ١٨٢، ذو الحجة ١٣٩٣، يناير ١٩٧٤م، ص ١٦٦ ـ ١٧١، بعنوان: العاملِ العربي يتخلف إنتاجه بمقدار ما يفوته من الحضارة، وقد رددت عليه حينها في مجلة المجتمع الكويتية.

وقد مثل لهذا بأمثلة منها: (الارتباطات العائلية، والإيمان المطلق بالمفاهيم الغيبية، وربط مشاكل المجتمع ومستقبل الحياة بإرادة الخالق...).

ولم أفاجأ بمضمون هذا الكلام حينما قرأته؛ لما ذكرت من أن الكلام مكرر معاد، ولكنني وقفت مليًّا عند هذه الفقرات التي نقلتها؛ لأنني لم أجد صاحبها أتىٰ بشيء سوىٰ أن قال: إنه يريد أن يكفر.

۞ العاطفة المشبوبة بالإلحاد هي الرائد في تحليله:

لقد كنت أود حينما قرأت البحث لو أنني وجدت فيه شبهة دليل يُثبت فيه صاحبه أن الإيمان سبب للتخلف، وأن الإلحاد سبب للرقي والتقدم، إذن لتعلق بمثل هذا الدليل علىٰ الأقل من يؤمن بمثل فكره، ممن يوجهه، إلا أنني وجدت الكلام خاليًا عن أي مقوِّم من مقومات البحث العلمي - وإنما هي عاطفة مشبوبة بالحقد علىٰ الدين، أفرغها في هذه الكلمات الجوفاء - مما يجعل الكلام مرفوضًا من قِبَل مَن يؤمن بمضمونها، قبل أن ترفض ممن يؤمن بالله والغيب.

۞ القيم التي زعم أنها سبب لتخلف المسلمين:

ولقد تساءلت: ما هي القيم التي سادت في مجتمعنا المسلم مما أدىٰ إلىٰ التخلف فيما زعم؟

فرأيت أن هذه هي تعاليم ديننا الحنيف ، من الصدق ، والوفاء ، والأمانة ، والاستقامة ، والكرم ، والرجولة ، والمروءة ، والغَيرة ، والحلم ، والصبر ، والأناة ، والحياء ، والعفة ، والرحمة ، والنظافة ، والإخاء ، والإخلاص ، والعزة ، والمَنَعة ، والإباء ، والأخذ على يد الظالم ، ونصرة المظلوم ، ورحمة الصغير ، وتوقير الكبير ، واحترام العلم والعلماء ، والبعد عن الضغينة ، والحقد ، والخيانة ، ونقض العهد ، والغيبة والنميمة ، والهمز واللمز ، والكذب ، وشهادة الزور ، وقذف المحصنات ، وسوء الظن والتجسس ، والخوض في الباطل ، وتضييع الوقت في اللهو واللعب ، وما شابه هذا مما يعجِز المرء عن تَعداده من مكارم الأخلاق ، ومحاسن العادات ، مما تتسابق كل أمم الأرض من أجل الارتقاء بأبنائها إليه ، مما يعجِزون عن وجود السبيل إليه إلا من خلال منطق الدين .

أوَيكون هذا الذي يتسابق إليه العالَم بأسره سببًا لتخلف أمتنا التي ابتليت بمثل هذا الاعوجاج من التفكير الذي وصل إليه باحثنا الحكيم ؟!

اللهم لا . . .

وهذا النفي ليس شيئًا أزعمه أنا أو غيري من المسلمين ، وإنما هو شيء يقوله كل عاقل في الأرض ، في الشرق أو الغرب .

* * *

قيمنا وأخلاقنا الإسلامية ذروة ما تتطلع إليه الإنسانية:

فلو عرضنا هذه القيم على كل من في الأرض لقال: إنها ذروة ما تفكر كل الأمم في الوصول إليه ، ولن تكون الحضارة الحقيقية إلا به .

إلا أنه الحقد الذميم ، الذي لا يَذهب ببهاء الكلام ويُظهر اضطرابه وتناقضه وهوانه فقط ، بل يَذهب ببصر المتكلم وبصيرته .

فهو لا يرىٰ من خلال العقل والمنطق ، وإنما يرىٰ من خلال الحقد والهوىٰ ، وبناء علىٰ ذلك فإنه يتصور الحقائق معكوسة منكوسة ، كعقله الذي انعكس بهواه!

ومن يك ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ
يَجِد مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

ومن ثَم تضطرب موازينه ، فيرىٰ الحق باطلًا ، والباطل حقًّا ، والجميل قبيحًا والقبيح جميلًا ، وما يزال يتعاظم هذا الخلل عنده حتىٰ يصل لدرجة لا يعبر عنها إلا التصوير الرمزي ، أو كما قال الشعر:

يُقضىٰ علىٰ المرء في أيام محنته
حتىٰ يرىٰ حَسَنًا ما ليس بالحَسَنِ

ومن كان هذا دأبه ، فإنه لا يجدي معه المنطق بحال ، ولا ينفعه الدليل والبرهان ، وإنما يُهمَل حتىٰ لا تشيع فاحشته ، ويستمر أهل الحق

علىٰ الطريق كما قال البحتري:

إذا محاسنيَ اللاتي أُدِلُّ بها
كانت ذنوبي، فقل لي: كيف أعتذر؟!
عليَّ نحتُ القوافي من معادنها
وما عليَّ لهم أن تفهم البقر

ولا يضر الحقَّ مثلُ هذه الأباطيل، كما لا يضر الشمسَ أن ينكر الأعمىٰ ضياءها، كما قال المتنبي:

وهَبْني قلتُ: هذا الصبحُ ليلٌ
أيَعمَىٰ العالَمون عن الضياء!

وقد قال حكيم المعرة أبو العلاء:

مِن الناس مَن لفظه لؤلؤ
يُبادِره اللَّقْطُ إذ يُلفَظُ
وبعضهمُ قولُه كالحصىٰ
يُقال فيُلغَىٰ ولا يُحفَظُ

۞ زعمه أن التخلف ناتج عن الإيمان بالغيب:

وأما شق كلامه الآخر، وهو الذي نسب فيه تخلف الأمة إلىٰ الإيمان بالغيب، وربطِ مشاكل المجتمع ومستقبل الحياة بإرادة

الخالق... فهو الذي قدمت له في بداية هذا الموضوع، وبينت فيه أن الذي نناقشه إن كان يجحد الخالق، فمن أكبر العبث أن أخوض معه في فكرة ربط مستقبل الحياة بإرادة الخالق، وهو لمَّا يؤمنْ بالخالق بعد!

هل الكفر بالغيب يرتقي بالأمم؟

ولكنني تأملت عبارته طويلًا، ثم تساءلت: ترىٰ إذا جَرَينا مع من يؤمن بهذا الفكر، فقلنا: إن سبب تخلف الأمة هو الإيمان بالغيب، تُرىٰ لو كفر الناس بالغيب والخالق، هل يستطيعون بكفرهم أن يخترعوا مركبة فضاء ينزلون بها علىٰ القمر؟!

فوجدت أن الجواب علىٰ كل مستويات التفكير، وبكل بساطة: لا..

وأنا قبل أن أقرر العكس، وهو أن الإيمان بالغيب والخالق من أعظم ما يمكن أن يدفع بالمرء إلىٰ ذروة المجد ويفاع الحضارة، لا بد أن نبين لأصحاب ذلك الفكر المتهاوي لماذا كان الجواب: لا.

إن الذي أملىٰ علىٰ كل عاقل أن يقول: لن يكون الكفر سبيلًا للرقي والحضارة، هو الواقع، فها هي دول أميركا الجنوبية، لا تؤمن بالغيب الذي نؤمن به ولم تربط مستقبلها بإرادة الخالق، ولكنها ما زالت تعيش في مستويات حضارية أدنىٰ من المستويات التي تعيش بها أمتنا اليوم، إلىٰ جانب ما فيها من الويلات التي لا سبيل إلىٰ ذكرها وتَعدادها الآن.

۞ الواقع يدل على أن الكفر بالغيب لا يرتقي بالأمم:

فها هي الصين الشعبية التي تشكل أكبر قوة بشرية في العالم، وثارت عدة ثورات على الغيب، والألوهية، والدين، آخرها الثورة الثقافية أيام ماوتسي تونغ، إلا أنها رغم هذا لم تستطيع أن تنهض من مكانها، بل تراجعت ولم تتقدم، مما دعا إلى الثورة على تلك الثورة، على ما هو معروف لكل عاقل..

ولا أريد أن أستطرد بذكر الأمثلة، فمعظم بقاع العالم، أو على الأقل نصف بقاع العالم، لا تؤمن بالغيب الذي نؤمن به، ولم تربط مستقبلها بيد الخالق، إلا أنها ما زالت في مستويات حضارية دون المستويات الحضارية التي تعيش فيها مجتمعاتنا الإسلامية.

۞ ربط التخلف بالإيمان سفسطة ملحدة:

إذن فربط التخلف بالغيب، والألوهية، والدين، إنما هو سفسطة وهزل، دفع إليهما عاطفة مشبوبة بالحقد على الدين، لا الحرص على التقدم ومصالح الأمة.

۞ الإيمان بالغيب وواقع أمتنا المعاصر:

على أن الإيمان بالغيب قد ضعف في أمتنا، وفشا في أوساطها ما لم يكن ظاهرًا على مر تاريخها الطويل، من الكفر والإلحاد،

والرذائل الاجتماعية والخلقية ، أقلها المخدرات ، وأكثرها ما يبيع الإنسان أمته ووطنه ودينه من أجله.

أما المخدرات فقد أصبحت ظاهرة عامة ، كادت تدخل كل بيت في بعض مجتمعاتنا الإسلامية ، مما جعل الأمة بأسرها تئن من شدة وطأتها.

وهنا تساءلت ثانية: أيهما أولىٰ أن يربط التخلف به في ذهن أولئك المتباكِين علىٰ مستقبل الأمة ؟ ذلك الشاب الذي يتمتع بكافة طاقاته الجسدية والعقلية ؛ إذ حرّم عليه إيمانُه بالله والغيب تلك المخدرات ؟

أم ذلك الشاب الذي فقد كل طاقاته الجسدية والعقلية بالمخدرات ، حتىٰ صار مجنونًا أو كالمجانين ، يترنح في الطرقات ، ويتسلق بسيارته أعمدة الكهرَباء ، وجدران المنازل الآمنة ؛ ليروع الأمة ، ويدمر حضارتها ، ويهدر طاقتها ، بعد أن فاحت منه وحوله روائح النتْن ، وانتشرت آثار الفساد ؟!

۞ ربط التخلف بالرذائل أولى من ربطه بالفضائل:

وأيهما أولىٰ أن ينسب التخلف إليه ؟

ذلك الشاب المتهتك الماجن ، الذي نسي مروءته وكرامته ، بعد أن نسي الفضائل والقيم ، وهام في طرق الباطل وأوكار الرذيلة ، يُفسد عفة

المجتمع ، ويهدر قِيَمَه... ليلُه عنف وضياع ، ونهارُه سخط وصراع ، وحياته كلها جحيم ؟

أم ذلك الشاب الذي زينه إيمانُه بالفضائل والتقوىٰ ، وتوَّجَه بالصدق والصفاء ، والعفة والإباء ، وصيّره عنوان المكارم... نهارُه جِدٌّ وعمل وإبداع ، وليلُه عبادة وتبتل ودعاء ، عرف أن ربه الذي آمن به يراقب عمله وسيحاسبه عليه ، فصرف كل طاقاته من أجل الإخلاص فيه ، وكف نفسه عما حرمه الله عليه ، فاطمأن بذلك قلبه ، وصَفَتْ سريرته ، وأمن غوائل الباطل ، دون الحاجة إلىٰ قانون يردعه ، أو رقيب يتجسس عليه ؟!

ولا أريد أن أستطرد بذكر الأمثلة والمفارقات ، فلو عُرِض هذان المثالان علىٰ كل عاقل في الأرض لقال: إن تخلف الأمّة منوط بذلك الصنف من الناس ، الذي عطل عقله ، وأهدر طاقته ، وضيع عمره في اللهو والغَواية ، فكان عالة علىٰ الأمة ، ونقمة علىٰ المجتمع ، وسببًا لكل ضياع!

وأما ذاك فهو ما تَجِدُّ كل الأمم المفكرة في الأرض لتجعل أبناءها في مواصفاته وأخلاقه ؛ لأن التقدم عند العقلاء منوط بالفضائل لا بالرذائل ، وبالحق لا بالباطل.

* * *

الإيمان طريق الحضارة والرقي:

وبناء على هذا الذي ذكرناه يكون الإيمان في أبسط مقدماته ومبادئه دعوةً إلى الرقي والحضارة، والتفوق والتقدم، والإنتاج والإبداع، بالسمو الروحي، والكمال الخُلقي.

وهذا أيضًا شيء نعرفه من خلال الواقع، كما عرفنا أثر الكفر من خلال الواقع.

ارتباط عزة أمتنا بالإيمان:

لقد كانت الأمة العربية أمة أمية، في مؤخرة أمم الأرض، فجاء الإسلام فأنقذها مما هي فيه، وما زالت ترتقي في سلم الحضارة والتقدم بإيمانها بخالقها... إلى أن صارت أعظم دولة في العالم القديم والحديث، تتوغل جيوشها في كل مَعْلَم من معالم الأرض، ولكن لا لِتَحمِلَ الدمار والخراب إلى البلاد التي تفتحها، كما عملت جيوش الغرب عندما اجتاحت بلاد العالم التي استعمرتها، وإنما لتحمل إليها نور الهداية الربانية، ومنهج الحياة الفاضلة، ولترتقي بها من حضيض الجهل والبؤس، والتخلف، والعبودية، إلى ذروة العلم والمعرفة، والسعادة والتقدم، والحرية الحقيقية التي استعاد بها الإنسان كرامته التي كان قد نسيها تحت وطأة استعباد الكنيسة، والإقطاع، والمبادئ الزائفة، من التمييز العنصري، والترتيب الطبقي، وغير ذلك.

وها هي أمتنا تعود اليوم لتنتكس وترتكس ، وتصبح في مؤخرة أمم الأرض ، كما كانت علية في جاهليتها ، بعد أن تنكبت طريق عزتها وكرامتها ، وبَعُدت عن منهج ربها ، وتخلت عن إيمانها .

وعندما كانت أمتنا تؤمن بالغيب ، وتربط مصيرها بربها ، كانت أمةَ الإبداع والإنتاج ، وكانت تشع على العالم بنور العلم والمعرفة ، فهي التي وضعت مبادئ كثير من العلوم التي قامت عليها النهضةُ العلمية الحديثة في أوروبا وغيرها من بلاد العالم ، كما أنها طورت العشرات من العلوم الأخرى ، وارتقت بها إلى مسارها الصحيح ، بعد أن نقحتها من أخطائها وانحرافاتها .

وعندما كانت بغداد حاضرة العلم والمعرفة ـ إذ كانت عاصمةَ الأمة الإسلامية المؤمنة بالله والغيب ـ كانت أوروبا منكبة على تعلم مبادئ القراءة والكتابة!

وعندما قاس علماء المسلمين قطر الأرض في عهد الخليفة المأمون ، كانت أوروبا تُعدِم كل من يقول: إن الأرض كرة ، أو: إنها تدور!

وعندما كانت أمتنا تَعِجّ بكبار العباقرة من الأطباء والصيادلة وأساطين العلوم التجريبية ، كانت أوربا تخضع للسحر والشعوذة ، وكانت أمريكا في العالم المجهول!

وعندما كانت أمتنا مؤمنة بالله والغيب ، كان الأوروبي يفخر بأنه علىٰ صلة بالثقافة الإسلامية ، وأنه يعرف اللغة العربية ، وأنه زار بلاد المسلمين ، أو تخرّج في جامعاتها الإسلامية ، في طليطلة ، وغَرناطة ، وقرطبة ؛ إذ كانت الأندلس الأوربية اليوم إسلاميةً ذاك اليوم ، وكانت محط ركاب الحضارة والعلم والتقدم ، وفي ذروة المثالية ، والكمال ، والجمال ، في ظل الإسلام وسماحته وتعاليمه .

وعندما جحد بعض أبناء أمتنا الخالقَ ، واستهزأ بالغيب ، وابتعد بعضهم الآخر عن شرع الله ، وضعف إيمانه بالغيب ، صارت حالنا إلىٰ ما لا يحمد ، مما يَسُرّ العدو ، ويحزن الصديق ؛ إذ صار اليهود الذين ضُربت عليهم الذلة والمسكنة ، أصحابَ الكلمة الأولىٰ في مصير هذه الأمة !

الكفر هو سبب تخلف أمتنا :

إن السبب الحقيقي في تخلف أمتنا ليس هو الإيمانَ بربها ، وربطَ مصيرها بقدرة خالقها . . . وإنما هو بُعدُها عن تحكيم شرع الله الذي كان سبب عزتها وكرامتها علىٰ مدىٰ تاريخها الطويل .

إن السبب الحقيقي في تخلف أمتنا هذه الفوضىٰ التي يَعِجّ بها مجتمعنا الذي أصبح يعيش بدون غاية أو هدف ، بعد أن نُحّي الدين عن واقع الحياة ، وأصبح الإنسان منقادًا للشهوات والأهواء ، تتقاذفه

أمواج الناس بعد أن حطمته أعاصير الاستبداد، من وراء البراقع البراقة الخادعة، التي تلفّع بها عبيد النجمة السداسية، وبقايا فلول الحروب الصليبية!

إن سبب تخلف أمتنا هو هذا الفراغ الذي يعيش به أبناؤنا وقد سُلبوا بقُوىٰ الغدر والطغيان كلَّ مقوِّمات الحياة الإنسانية، من حرية الفكر، وحرية القول، وحرية المعتقد!

إن السبب الحقيقي في تخلف أمتنا هو أولئك الذين خانوا دينهم، وأمتهم، بعد أن باعوا أنفسهم لأعدائها، وصاروا يلهجون بفكرهم، ويروجون لباطلهم!

إن السبب الحقيقي في تخلف أمتنا هو البعد عن المنهج الذي انتصر به أسلافها عندما كانوا في قلة، وكان عدوهم في كثرة، وعندما كانوا في فقر، وكان عدوهم في غنًىٰ، وكانوا حفاة عراة تصهرهم الشمس بأشعتها، وتتجهمهم الصحراء بقسوتها، وأعداؤهم في الحصون والقلاع، يداعبون الغِيد، ويعاقرون الخمر، ويعيشون في أحلام العظمة الزائفة!

ولن يَصلُح أمرُ هذه الأمة إلا بما صلَح به أمر أولها...

* * *

شهادة علماء الغرب للحضارة الإسلامية

يقول درابر الأستاذ بجامعة نيويورك ، في كتابه (المنازعة بين العلم والدين):

بعد وفاة محمد ﷺ تُرجمت إلىٰ اللغة العربية أهمُّ المؤلفات الإغريقية ، وترجمت القصائد اليونانية الشهيرة.

ولما ولي الخلافةَ أبو جعفر المنصور ، نقل عاصمة الملك إلىٰ بغداد ، وجعلها عاصمة فخمة ، فلم يأل جهدًا في بذل الوسع في درس العلوم الفلكية ، وتأسيس مدارس الطب والشريعة.

ولما جلس حفيده هارون الرشيد علىٰ عرش الملك اتبع أثر جده في هذه الفتوحات العلمية ، وأمر بإضافة مدرسة إلىٰ كل مسجد في جميع أرجاء ملكه.

ولكن عصر العلم الزاهر في القارة الآسيوي لم يشرق إلا في خلافة المأمون ، فإنه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمىٰ ، وجمع إليه كتبًا لا تحصىٰ ، وقرّب إليه العلماء ، وبالغ في الحفاوة بهم.

وهذا الذوق السليم في العلم استمر لديهم حتىٰ بعد أن انقسمت المملكة إلىٰ ثلاثة أقسام ، حتىٰ إن العباسيين في آسيا ، والفاطميين في

مصر، والأمويين في إسبانيا، لم يكونوا متناظرين متغايرين علىٰ الحكومة فقط، بل كانوا كذلك علىٰ الآداب والعلوم أيضًا.

ثم قال:

ذاق العرب في الفنون الأدبية كل ما من شأنه أن يحد القريحة، ويصقل الذهن، وقد افتخروا فيما بعد بأنهم أنجبوا من الشعراء بقدر ما أنجبت منهم الأمم كلها.

أما في العلوم فقد كان تفوقهم فيها ناشئًا من الأسلوب الذي توخَّوه في المباحث... وهو الأسلوب التجريبي، والدستور العملي ـ الحسي، وكانوا يعتبرون الهندسة والعلوم الرياضية أدوات ومعدات لعلم المنطق.

وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة علىٰ الميكانيكا، وعلم موازنة السوائل وضغطها علىٰ جدران أوعيتها، ونظريات الضوء والإبصار، بأنهم قد اهتدَوا إلىٰ حلول مسائلها من طريق التجربة، والنظر بواسطة الآلات.

هذا هو الذي قاد العرب لأن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء، والمكتشفين لجملة آلات التقطير، والتصعيد، وإسالة الجوامد، والتصفية.

وهذا بعينه أيضًا هو الذي جعلهم يستعملون في أبحاثهم الفلكية

الآلات المدرّجة، والسطوح المعلمة، والأَسْطُرْلابات.

وهو الذي بعثهم لاستخدام الميزان في العلوم الكيميائية.

وهو أيضًا الذي أرشدهم لعمل الجداول عن الأوزان النوعية للأجسام، والأزياج الفلكية (وهي جداول تعرف منها حركات الكواكب) كالتي كانت في بغداد، وقرطبة، وسمرقند.

وهو أيضًا الذي أوجب لهم الترقي الباهر في الهندسة، وحساب المثلثات، واكتشاف علم الجبر.

ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منتظِمة لأجل أن يتوصلوا إلى تكوين المكتبات، وقد قيل: إن المأمون نقل إلى بغداد مائة حمل بعير من الكتب، وقد كان أحد شروط معاهدة الصلح بينه وبين الإمبراطور ميشيل الثالث أن يعطيه إحدى مكتبات القسطنطينية التي كان فيها بين الذخائر الثمينة الأخرى كتابُ بطليموس على الرياضيات السطوحية، فأمر المأمون بترجمته إلى العربية وسماه (المجسطي).

حتى إن مكتبة القاهرة كان بها نحو مائة ألف كتاب، معتنًى بكتابتها وتجليدها غاية الاعتناء، وكان يوجد من بين هذه الكتب ستةُ آلاف وخمسمائة مجلد في الطب والعلوم الفلكية فقط. وكان بتلك المكتبة كرتان أرضيتان، إحداهما من الفضة، والأخرى من البرونز!

وقد اشتملت مكتبة خلفاء الأندلس فيما بعد على ستمائة ألف مجلد، وكان جدول أسمائها وحده محويًّا في أربعة وأربعين جزءًا، كما كان في الأندلس سبعون مكتبة عامة، وكثير من المكتبات الخاصة!

ثم قال:

لم يقف بحث العرب عند حد، فقد كتبوا في كل فن، وفي كل علم... وكل هذه المؤلفات كانت تنشر بدون رقابة ولا حجر.

وقد كانت كتب العرب الزاخرة بالمعلومات التي تصلح لأن تتخذ مادة في العلوم... كثيرة جدًّا، في الجغرافيا، والإحصاءات، والطب، والتاريخ، وقواميس اللغة، وكان لديهم دائرة معارف علمية.

وكان للعرب ذوق دقيق في صنع الورق النظيف الناصع البياض، وفي إعطاء الحبر الألوان المختلفة، وكان الملك الإسلامي العربي مملوءًا بالمدارس والكليات.

ثم قال:

ولقد اتبعت المدارس الطبية عامة مثال مدرسة الطب في القاهرة في اختبار الطلبة قبل تخرجهم نهائيًّا، بحيث لا يستطيع أحدهم أن يشتغل بمهنة الطب إلا بهذا الشرط.

وأول مدرسة أنشئت من هذا القبيل في أوروبا هي المدرسة التي

أسسها العرب في سالون في إيطاليا ، وأول مرصد أقيم فيها هو ما أقامه المسلمون في إشبيليَة بإسبانيا .

ثم قال:

ولو أردنا أن نستقصي كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمىٰ ، لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فإنهم قد رَقَّوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدًّا ، وأوجدوا علومًا أخرىٰ لم تكن معروفة مِن قَبْلهم .

ثم عدد عشرات العلوم والنظريات العلمية التي ابتكرها المسلمون وأسسوها ، مما يمكن الرجوع إليه في كتابه ، فلا نطيل به .

ويقول في المدينة الإسلامية:

كانت قرطبة تتألف من مائة ألف بيت ، ويسكنها مليون من النسمات ، ويكفي أن تعرف أن شارعها الأكبر كان بطول عشرة أميال ، ويضاء ليلًا للمارة بمصابيح كبيرة ، وذلك مشهد من مشاهد الحضارة لم تعرفه مدينة لندن إلا بعد ذلك العهد بسبعمائة عام ، وكانت طرقها مرصوفة بالأشجار ، في حين أن باريس ظلّت قرونًا بعد حضارة العرب في الأندلس بِرَكًا للمياه والأوحال التي تغوص فيها الأرجل إلىٰ الركب في فصل الشتاء!

ولم يقتصر الأمر علىٰ قرطبة ، بل إن غَرناطة ، وإشبيليَة ، وطليطلة ،

كانت مدنًا تعد أشباهًا لقرطبة، ونظائرَ لها.

وكانت قصور الأمراء مثلًا من الفخامة الشرقية، بل كانت متاحفَ للفنون الرفيعة، وعنوانًا علىٰ حضارة عريقة، في حين أن المنازل التي سكنها أمراء ألمانيا وفرنسا وإنجلترا لم تكن تفضل حظائر الماشية في شيء، فهي بلا مداخن، ولا نوافذ، وكان المخرج الوحيد الذي يسلم إلىٰ فضاء الجو كوَّة من أعلىٰ السقف يتصرف منها الدخان!

ومن الأسف أن الأدب الأوروبي حاول أن ينسينا واجبنا العلمي نحو المسلمين، فقد حان الوقت الذي ينبغي لنا أن نعرفهم، وإن قلة الإنصاف المبنية علىٰ الأحقاد وعلىٰ العنجهية القومية لا تدوم أبد الدهر.

ويقول المؤرخ جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب):

إذا رجعنا إلىٰ القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد، حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جدًّا، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجًا يسكنها سنيورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرؤون! وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكينِ الجاهلين، الذين يقضون أوقاتَهم في أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين النفيسة بخشوع، وذلك كيما يكون عندهم من الرُّقوق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة!

ودامت همجية أوربا زمنًا طويلًا من غير أن تشعر بها، ولم يبدُ في

أوربا بعض الميل إلىٰ العلم إلا في القرن الحادي عشر والثاني عشر من الميلاد، وذلك حينما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم، فوَلَّوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم.

ثم قال في وصف العرب المسلمين وحضارتهم التي بهرت الأنظار:

العرب مع وَلُوعهم بالأبحاث النظرية، لم يهملوا تطبيقها علىٰ الصنائع، فقد أكسبت علومهم الصنائع جَودة عالية جدًّا، وإننا وإن كنا لم نزل نجهل أكثر الطرق التي سلكوها في ذلك، إلا أننا نعرف نتائجها وآثارها.

فنعرف مثلًا أنهم احتفروا المناجم، واستخرجوا منها الكبريت، والنحاس، والزئبق، والحديد، والذهب.

وأنهم قد بَرَعوا جدًّا في صناعة الصباغة.

وأنهم مهروا في سقي الفولاذ مهارة بعيدة المدىٰ، حتىٰ إن صفائح طليطلة أصدق البراهين علىٰ ذلك.

ونعرف أيضًا أنه كان لمنسوجاتهم، وأسلحتهم، ومدبوغاتهم من الجلود، ولورقهم شهرة عامة.

وأنهم في كثير من فنون الصنائع برعوا براعة لم يُلحَق لهم شأو فيها إلىٰ الآن!

ومن بين المكتشفات المعزوة للعرب أشياء ذات شأن كبير كالبارود مثلًا.

ثم قال بعد كلام طويل على المخترعات العربية:

مما مر يتجلى للقارئ أن ديوان المكتشفات العربية في العلوم الطبيعية لا يقل في الخطورة والقدرة عما لهم منها في العلوم الرياضية والفلكية، وذلك أنهم كانت لهم معلومات عالية في الطبيعة النظرية، خصوصًا في نظريات الضوء والإبصار.

وقد حُفظ عنهم أنهم اخترعوا أجهزةً ميكانيكية من أدق ما يعرف من نوعها، واكتشافهم للجواهر التي تعد من أعظم أركان علم الكيمياء، مثل الكحول، وحمض النتريك، وحمض الكبريتيك، وقد سُجل لهم أكبر الأعمال الأساسية، كالتقطير مثلًا.

وأثر عنهم استخدام الكيمياء لفن الصيدلة.

وقد استطرد لوبون في كلامه على الحضارة الإسلامية، وأثرها على الحضارة العالمية، فليرجع إلى كتابه من يشاء، فقد ألفه لهذا الغرض.

ويقول تراند في مقالة بعنوان: «إسبانيا والبرتغال»:

من الثابت أنه بينما كانت أغلب أوروبا ترزح تحت نِير الشقاء والفساد، ماديًا وروحيًا، أقام المسلمون في الأندلس حضارة زاهرة،

وحياة اقتصادية منظمة، لعب فيها الأندلسيون دورًا حاسمًا في تطور الفن، والعلم، والفلسفة، والشعر، وأثّرت حتىٰ في أرفع أعلام الفكر النصراني للقرن الثالث عشر... فكانت إسبانيا (الإسلامية) مَشعل أوروبا.

ويقول أيضًا:

ولا يتأتىٰ للمرء معرفة التأثير العظيم الذي أثّره العرب في الغرب إلا إذا تصور حالة أوروبا في الزمن الذي دخلت فيه الحضارة.

فإذا رجعنا إلىٰ القرنين التاسع والعاشر للميلاد، يوم كانت المدينة الإسلامية في إسبانيا زاهرة باهرة، نرىٰ أن المراكز العلمية الوحيدة في عامة بلاد الغرب كانت عبارة عن أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين، يفاخرون بأنهم أميون، لا يقرؤون ولا يكتبون، وكانت الطبقة المستنيرة عبارة عن رهبان فقراء يقضون الوقت بالتكسب في أديرتهم بنسخ كتب العلماء، دون فهم أو اقتناع؛ ليبتاعوا ورق البَرْديّ اللازم لنسخ كتب العبادة!

وطال عهد الجهالة في أوروبا، وعم تأثيره، بحيث لم تعد تشعر بتوحشها، ولم يبدُ فيها بعض الميل إلا في نهاية القرن الحادي عشر، وبعبارة أصح القرن الثاني عشر.

ولما شعرت بعض العقول المستنيرة بالحاجة إلىٰ نفض كفن الجهل

الثقيل ، الذي ينوء الناس تحته ، **طرقوا أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون إليه ؛ لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم في ذلك العهد.**

ولم يدخل العلم أوروبا إبان الحروب الصليبية ، كما هو الرأي الشائع ، بل دخله بواسطة الأندلس ، وصقلية ، وإيطاليا.

وعَرَف الغرب بترجمة كتب العرب عالمًا جديدًا.

وقد عدد (لكلرك) في تاريخ الطب العربي ثلاثمائة كتاب ، نقلها الغرب إلىٰ اللاتينية من العربية.

وما عرفت القرون الوسطىٰ المدنيّة إلا بعد أن سرت إليهم من أشياع محمد ﷺ.

وبعض هذه المترجمات لكتب القدماء التي فُقد أصلها ، حَفِظت هذه الأسفارَ من الضياع ، فوصلت إلىٰ العرب... وإلىٰ العرب وحدهم ، لا رهبان القرون الوسطىٰ ، ممن كانوا يجهلون حتىٰ اللغة اليونانية ، فيرجع الفضل في معرفة هذه الكتب إلىٰ العرب وحدهم ، والعالَم مَدين لهم علىٰ وجه الدهر ، لإنقاذهم هذا الكنز الثمين.

وقال أيضًا:

وكلما تعمق المرء في دراسة المدنيّة العربية الإسلامية ، تجلت له أمور جديدة ، واتسعت أمامه الآفاق ، وثبت له أن القرون الوسطىٰ لم

تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب ، وأن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة تكتب للعرب خاصة ، وأن العرب هم الذين مدّنوا أوروبا في المادة والعقل والخُلق ، وأن العرب المسلمين أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين.

ويرىٰ البعض أنه من العار أن تكون أوروبا مَدِينة في خروجها من دور الهمجية للمسلمين ، ولكن من الصعب أن يَحجُب مثلُ هذا العار الوهمي وجهَ الحقائق.

وعلىٰ الجملة: فإن التاريخ ما عرف فاتحًا أعدلَ ولا أرحمَ من العرب.

ويقول بريفولت:

إن روجر بيكون درس اللغة العربية ، والعلوم العربية ، في مدرسة أكسفورد علىٰ خلفاء معلميه العرب في الأندلس.

وليس لروجر بيكون ، ولا لسميِّه الذي جاء بعده (فرانسيس بيكون) الحق في أن يُنسَب إليهما الفضلُ في ابتكار المنهج التجريبي ، فلم يكن (بيكون) إلا رسولًا من رسل العلم والمناهج الإسلامية إلىٰ أوروبا المسيحية ، وهو لم يملَّ قط من التصريح بأن تعلُّم معاصريه للغة العرب ، وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد لمعرفة الحق.

والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرق

من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية.

وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر (بيكون) قد انتشر انتشارًا واسعًا، وانكب الناس في لهفة على تحصيله في ربوع أوروبا.

ويقول د. لويجي رينالدي:

لقد اجتاح العالَمَ الغربيَّ حوالي سنة ألف ميلادية غزوٌ إسلامي جديد، كالسيل الجارف، ولم يكن أي حاجز يقوى على صده.

ذلك الغزو الذي يحمل التهذيب العربي، والمدنيّة الإسلامية.

فإن شعب الصحراء العظيم ظهر على وجه الأرض، بعد سقوط المدنيّتين الرومانية واليونانية واندثار معالمهما، وبذلك قام العرب في ظلماتِ بربرية القرون الوسطى بإعادة نور الحضارة والمدنيّة الذي كان قد انطفأ في جميع بلاد الغرب والشرق حتى القسطنطينية.

ولست أدري لماذا لا نسمع كلمة إعجاب بالشعب العربي العظيم! الذي ترك في طريق المدنيّة آثارًا عديدة، والذي حمل معه أعظم المساعدات، وأجل الخِدْمات للنوع الإنساني، فيجب أن لا نبخل على العرب بإعطائهم المقام اللائق.

وقد يحزنني ويحزن غيري أن يكون بيننا نحن الأوروبيين نفر يقودهم سوء الظن والجهل إلى احتقار العرب وحسبانهم أمة أدنى من

أممهم ، وأن نرىٰ كلمة (عربي) عندنا تدل علىٰ معنًىٰ غير معنىٰ التمدن! فإن هذا الشعب لا يزال يحفظ صفاته العجيبة ، وذكاءه النادر .

ويقول ل . أ . سيديو:

كان العرب المسلمون وحدهم ممثلي الحضارة في القرون الوسطىٰ ، فدحروا توحش أوروبا التي زلزلتها غارات أمم الشَّمال ، ولم يشتعل النور في أوروبا ثانية إلا بعد ثمانية قرون .

ويظهر أن قصد نسيان العرب ، وإنكار ما لهم من تأثير في الحضارة الحديثة ، قد ولىٰ ، فقد حان الوقت الذي تُوجَّه فيه الأنظارُ إلىٰ تاريخ تلك الأمة التي كانت مجهولة الأمر في زاوية من آسيا ، فارتفعت إلىٰ أعلىٰ مقام ؛ فطبّق اسمها آفاق الدنيا ، مدة سبعة قرون .

إن مغازي العرب ، وإقامتهم بين القرنين الثامن والحادي عشر في جنوب فرنسا ، أسفرت ولا ريب عن آثار لا تزول في لغتنا ، وإن نفوذ العرب كان باديًا في مختلِف أدوار تاريخنا ، لا فرق في ذلك بين زمن الغزوات الأولىٰ ، وزمن الحروب الصليبية .

ومن المؤسف أنْ جَهِلَ أفضلُ علمائنا في اللغة لغات الشرق ، فظلت اللغة العربية ـ التي حافظت علىٰ صفاتها بفضل القرآن ، وهي أدعىٰ اللغات إلىٰ العجب ـ حرفًا ناقصًا عندهم ، حتىٰ إنهم لم يَدُرْ في خلدهم أن الكلمات التي يفرضونها إيطالية ، أو إسبانية ، أو برتغالية ،

عن أصل لاتيني، قد اقتُبست من العربية!

إن العرب المسلمين كانوا أساتذة أوروبا كلها في جميع فروع العلم والمعرفة، وإن ما شيد من المدارس والجامعات في أرجاء دولتهم يوقد مصباح الحضارة فيما بين الشرق الأقصىٰ وبين هركول (مضيق جبل طارق) ناشرًا آثار الفن العربي الرائع في كل مكان، عاملًا علىٰ تجديد الدم في عروق العالم اليوم.

ونحن مَدِينون للعرب في الحقل العلمي، ونعترف مع ذلك بأن قومنا جميعًا كانوا يتلهَّون بتشويه ما يقتبسونه من التعابير تشويهًا غريبًا إلىٰ الغاية.

فقد حان الوقت الذي توجه الأنظار إلىٰ تاريخ تلك الأمة التي كانت مجهولة، فارتقت إلىٰ أعلىٰ مقام، فطبَّق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون.

ويقول البروفسور (دالماس) عميد كلية الطب في جامعة مونبلييه:

عندما أراد أهل مونبلييه في أوائل القرن الثاني عشر إنشاء جامعتهم، وجدوا أنْ ليس في مدينتهم الأساتذةُ العلماء ذوو الكفاءة اللازمة لإنشاء الجامعة وإلقاء المحاضرات العلمية العالية، ففكروا في الاستعانة بجامعات أخرىٰ لهذه الغاية...

نظروا أولًا إلىٰ باريس، فرأوا أنها ليست أحسنَ حالًا منهم.

ثم فكروا في روما، فوجدوا أنها ليست أحسنَ حالًا منهم.

وأما إنكلترا وألمانيا فكانتا لا تزالان في الأشواط الأولىٰ في العلم والثقافة.

وبعد بحث قرروا أنه لا مناص من طلب تلك المساعدة الفنية من البلد الوحيد الذي يستطيع أن يُمدّهم بالأساتذة والخبراء الأكْفاء، وهو الدولة العربية في الأندلس.

فاتصلوا بها، وعرضوا عليها وضعهم، فلبَّت الحكومة العربية طلبهم، وأرسلت إلىٰ مونبلييه ثلاثة من كبار الأساتذة المشهورين بالطب والعلوم والفلسفة.

عكف هؤلاء علىٰ مُهمتهم، وأخذوا ينظّمون الجامعة، ولا سيما كلية الطب.

كما ألقَوا المحاضرات العلمية خلال ثلاث سنوات.

وبعد ذلك وجدوا أن في إمكان الأساتذة الفرنسيين الاستمرار في عملهم دون الحاجة إليهم، فاستأذنوا في العودة إلىٰ أعمالهم في جامعتهم في إسبانيا العربية.

ويقول المستشرق الهولندي دوزي (ت ١٨٨٣م):

إنه في الوقت الذي لم يكن يوجد فيه أمي في الأندلس، كان

لا يَعرف القراءةَ والكتابة في أوروبا معرفةً أولية إلا الطبقةُ العليا من القسس.

ويضاف إلىٰ هذا أنه في الوقت الذي كانت تحتوي فيه المكتبة الإسلامية الرئيسية في الأندلس عام (٣٥٠هـ = ٩٦١م) علىٰ نصف مليون كتاب، كانت تنسخ باليد، لم تكن في أوروبا بعدُ مكتبة.

بل إن أكبر مكتبة في أوروبا كانت مكتبة كنيسة (كانتربري) في مقاطعة (كنت) جنوب شرقي إنكلترا، كانت تحتوي في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر ميلادي، أي بعد التاريخ الذي ذكرناه عن مكتبة الأندلس بأربعة قرون ـ كانت تحتوي علىٰ (١٨٠٠) ألف وثمانمئة مجلداً(١)!

ويقول د. فؤاد سزكين في كتابه (محاضرات في تاريخ العلوم):

يخيل إلىٰ كثير ممن لا يعرفون موقف العلماء العرب في العلوم التجريبية، أن (روجيه باكون) يعد منذ أمد بعيد المؤسسَ للمنهج العلمي الذي يقوم علىٰ أن التجربة هي أساس البحث في العلوم الطبيعية، وقد ظل هذا الاعتقاد بأولية هذا العالِم إلىٰ يومنا هذا.

لكن مؤرخ المنطق العالم (برانتل) رفع صوته ضد هذا التيار من غير أن يكون مختصًا في العلوم الإسلامية، وقال: «إن روجيه باكون

---

(١) الفكر الإسلامي ص١١٢، ترجمة د. أحمد شلبي ١٩٧٨م.

أخذ كل النتائج المنسوبة إليه في العلوم الطبيعية من العرب»!

وقد استطاع بعض المختصين أمثال (فيديمان) و(أشرام) أن يوضحوا بِجِلاء كبير مكانة العلماء المسلمين في تأسيس قانون التجربة والنظرية ، وأثرهم الواضح في (روجيه باكون) و(ليوناردو دافنشي) وسواهم.

واتضح بما لا يقبل الجدال أن مُهمة العلماء المسلمين لم تكن تعتمد على التجربة وحدها ، وإنما اهتموا في الواقع بمسألة أن التجربة يجب أن تسبقها النظرية ، وأنهم عملوا التجربة بهذا المعنى واسطة تستعمل باستمرار في أثناء البحث.

وإن (فيدمان) يقول بكل صراحة: إن العرب كانوا سباقين إلى هذا الموضوع ، بل إن ما توصل إليه (روجيه باكون) أقل بكثير مما كان موجودًا عند العلماء العرب القدماء.

* * *

وهذا غيض من فيض ، وقليل من كثير مما قيل ، ولو أردنا أن نتتبع ما قاله علماء أوروبا وأمريكا في شأن العلوم والحضارة الإسلامية ، مما اخترعوه ، أو اكتشفوه ، أو ارتقَوا به من طور السذاجة والبدائية إلى أعلى درجات النضج والإتقان ، لكتبنا في هذا العشرات من المجلدات.

ومكتبات العالم أكبر شاهد على هذا ، إلى جانب الآثار المادية التي تركتها الحضارة الإسلامية ، في معظم بقاع الأرض ؛ لتكون شاهدة على

عظمة ما وصل إليه الآباء والأجداد في ظل الإسلام، وذلّ ما صارت إليه أجيالنا حينما تنكبت الطريق القويم، وزاغت عن الصراط المستقيم.

وإننا إذ ندوِّن هذه النقول، مما قاله مؤرخو الغرب في الحضارة والعلوم الإسلامية، لا نريد بذلك أن نعلم ما جهلناه، أو نثبت ما فقدناه، فهذه حضارتنا، ونحن أعلم بها من عدونا، وما كتمه علماء الغرب منها عن أممهم أكثر كثيرًا مما ذكروه لها.

ولكننا نذكر ما ذكرناه ليعلم أولئك الذين يتباكَوْن على مجد الأمة وينسُبون تخلفها إلى الدين - ليعلموا أن أمتنا ما عَزّت وعُرِفت إلا بهذا الدين، وما ذلت وضاعت إلا بالإعراض عنه، ولن يَصلُح أمرُ آخر هذه الأمة إلا بما صلَح عليه أمر أولها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

الفهـرس

الموضوع الصَّفحة

المقدمة ٥

العقل والغيب ٨

لا جدال مع الكافر في أمور الغيب ٨

الكلام في المغيبات مع المؤمن فقط ٩

الإيمان بالله وبالغيب متلازمان ٩

الإيمان كلٌّ لا يتجزأ ١١

الإيمان بالغيب تكريم للعقل لا تعطيل له ١٢

لا يجوز إخضاع الغيبيات والتعبديات لحكم العقل ١٣

أمثلة لبعض ما لا يستوعبه العقل من التعبديات والغيبيات ١٤

العقل عاجز عن استيعاب ما وراء طاقته من وقائع الحياة ١٥

استبداد العقل أوقع الفلاسفة في التناقض والكفر ١٧

الإيمان بوجود الله يستلزم الإيمان بِقِدمه وصفاته ١٩

خوض العقل فيما وراء طاقاته عبث ٢٠

الإيمان بالله يستلزم الإيمان بما أخبر به ٢١

ليس كل ما آمن به العقل جرَّبه ٢٢

الروح حقيقة آمن بها العقل ولم يجربها ٢٢

الإيمان بالغيب كالإيمان بالروح ، بل هو أولى ٢٤

الموضوع	الصَّفحة
التشكيك بالغيبيات من أهم وسائل الفكر الإلحادي	٢٥
إيماننا بالغيب من مفاخرنا وإن أسخط الفكر المادي	٢٦
لا عجب في إنكار الملحد للغيب	٢٦
الإيمان بالله مع الكفر بالغيب من أشنع المتناقضات	٢٧
الإنصاف والتجرد عن العصبية أساس لعلاج كل قضية	٢٧
مناقشة ملحد منصف أيسر من مناقشة منافق	٢٨
تحليل ملحد منافق لأسباب تخلف المسلمين	٣٠
العاطفة المشبوبة بالإلحاد هي الرائد في تحليله	٣١
القيم التي زعم أنها سبب لتخلف المسلمين	٣١
قيمنا وأخلاقنا الإسلامية ذروة ما تتطلع إليه الإنسانية	٣٢
زعمه أن التخلف ناتج عن الإيمان بالغيب	٣٤
هل الكفر بالغيب يرتقي بالأمم ؟	٣٥
الواقع يدل على أن الكفر بالغيب لا يرتقي بالأمم	٣٦
ربط التخلف بالإيمان سفسطة ملحدة	٣٦
الإيمان بالغيب وواقع أمتنا المعاصر	٣٦
ربط التخلف بالرذائل أولى من ربطه بالفضائل	٣٧
الإيمان طريق الحضارة والرقي	٣٩
ارتباط عزة أمتنا بالإيمان	٣٩
الكفر هو سبب تخلف أمتنا	٤١

الموضوع	الصَّفحة

شهادة علماء الغرب للحضارة الإسلامية ٤٣
شهادة درابر الأستاذ بجامعة نيويورك ٤٣
شهادة المؤرخ جوستاف لوبون ٤٨
شهادة تراند ٥٠
شهادة لكلرك ٥٢
شهادة بريفولت ٥٣
شهادة د. لويجي رينالدي ٥٤
شهادة ل. أ. سيديو ٥٥
شهادة البروفيسور دالماس ٥٦
شهادة المستشرق الهولندي دوزي ٥٧
شهادة د. فؤاد سزكين ٥٩
الفهرس ٦١

* * *